وصدر فيه لهمّ الساع اذا ضاقت من الهم الصدور

فهذه الاوصاف اذا كملت في الزعيم المدبر وقل ما تكمل فالاصلاح بنظره عام، ومايناط برأيه وتدبيره تام، واذ اختلت فالصلاح بحسبها يختل، والتدبير على قدرها يعتل، ولئن لم يكن هذا من الشروط الدينية المحضة فهو من شروط السياسة الممازجة لشروط الدين لما يتعلق بها من مصالح الامة واستقامة الملة . اه

الى اي تعليم وتربية نحن احوج (*

اذا نظرنا الى مابين أيدينا من لوازم حياتنا ضرورية وحاجية وكمالية ألفينا اننا عالة على أوربا في كل شيء منها إما بالذات وهو الاكثر، وإما بالواسطة وهو الاقل، فمن يخيط منا ثوبه اذا يخيطه بالآلات والادوات والخيوط الاوربية ونسيج الثوب من أوربا في الغالب وما عساه يوجد من اداة وآلة للقطع أو الحرث والعذق من صنع أهل البلاد فحديدها مجتلب من أوربا اذ لا يوجد في بلادنا من يستخرج الحديد من معادنه ويهيئه لعمل الآلات منه بلَهَ (اي اترك وهي بمعنى فضلا عن كذا) البواخر البحرية بانواعها والمركبات البرية واصنافها وسائر المعامل والمصانع وما فيها من الآلات البخارية والكهربائية

السواد الاعظم منا ينظرون الى هذه الاعمال والمصنوعات فيقولون ان الافرنج عقولهم في عيونهم وايديهم ونحن عقولنا في رؤسنا وقلوبنا، يعنون ان عقولنا لا يمكن ان تنشأ عنها اعمال عظيمة لانها لم تكن في اعضاء

(*) فاتحة العدد السادس عشر الذي صدر في ١٦ صفر سنة ١٣١٦

عاملة . تلفظ بهذا القول عامتنا ولو ان لهم عقولا لعلموا مواضعها ووظائفها واستنزلوها من رءوسهم الى اعينهم وايديهم وأرجلهم وجعلوها المحرك لكل اعضائهم وجوارحهم ، والمدبر لجميع منافعهم ومصالحهم ، استغفر الله ان وجود الشيء لا يقتضي العلم به ولو بوجه ما فكيف يقتضي كمال العلم والحكمة بالوصول من كل شيء لثمرته ، والاشراف من كل مبدإ على غايته ، وهذا لا يهتدي اليه الا بكمال التعليم والتربية على العمل ولكن اكثر الناس لا يعلمون . وأما خاصتنا ونبهاؤنا فانهم ينظرون من تلك الاعمال العظيمة الى مناشئها ومبادئها فيرون انها ثمرة علوم وفنون كثيرة رياضية وطبيعية واقتصادية الخ يتأملون فيرون ان عمل الابرة يحتاج فيه الى كثير من هذه العلوم والفنون فضلاً عن الجواري المنشآت في البر والبحر ونحوها من المصنوعات العظيمة التي قامت بها المدنية الحادثة وكل أمة تنكبتها فهي معرضة للزوال

ربما طاف في نفوس هؤلاء طائف الغيرة على بلادهم وقومهم وفكروا في مجاراتهم للامم القوية وكيف تكون هذه المجاراة وبماذا تكون ولكن التفكير من غير تشمير ينتهي في الغالب الى سوء المصير وانتهى بالاكثرين الى اليأس والقنوط الذي هو أدوأ الامراض النفسية وأقتلها . رأوا اننا نحتاج في هذه المجاراة الى المال الكثير لانشاء مدارس للفنون وللصنائع والى كثير من المعلمين الناصحين لاجل تعميم ذلك في البلاد ولا مال عندنا بل بالفرض ولئن وجد المال عند قوم منا فهم لا يبذلون للمدارس لجهلهم بفائدة العلوم والفنون ولا للصنائع لعدم ثقتهم بنجاح العمل ثم برواج المصنوع الوطني اذا نجح مع معارضة مصنوعات أوربا له وهي

أجود صنعاً وأرخص ثمناً لقلة النفقات ووفرة الآلات وكثرة المهرة من العمال ولان ذويها أقدر على نشرها في الممالك النائية والقاصية بالتجارة وأرضى باليسير من الربح لكثرة المال والثقة بالمآل . ولا يوجد عندنا من المعلمين الوطنيين معشار ما نحتاج اليه لتعميم التعليم اللازم ولا ثقة لنا بالاجانب لانهم لطمعهم في بلادنا وللمداوة السياسية التي بيننا وبينهم لا يمكن ان ينصحونا ويعلمونا ما نستقل به عنهم ونقطع طرق المطامع عليهم بل تلؤمهم أسباب الحياة والبقاء ونضارعهم في التقدم والارتقاء . وما يؤمنهم اذا ساهمناهم في صنائعهم وساميناهم في معارفهم اننا نسموهم ونبذهم (نعلوهم ونغلبهم) وقد كنا نحن السابقين في ميادين المدنية الى كل اكتشاف في العلم واختراع في الصناعة وقد أخذوا عنا فأربوا علينا وآثارنا عندهم تدل علينا . هذا ما يحملهم على استبدال الغش بالنصيحة وسلوك سبل الإفساد عوضا عن انتهاج طرق الاصلاح ولقد انخدع بهم بعض أسلافنا من قبل فألقوا اليهم من أزمة التعليم ومهدوا لصناعتهم وتجارتهم الطرق فحكموا وبالاعلى كل بلاد تبوءوها ، استأثروا بجميع منافعها وعمدوا الى ما فيها من لغة وجنسية وأدب ودين ونفوذ حكومة وصناعة وتجارة فأماتوا بعض ذلك وأضعفوا البعض الآخر فمنها ما فقد استقلاله بالكلية ومنها ما ينتظر ذلك وكانت تلك عاقبة المغرورين

هذا ما أوقع اكثر المتفكرين في هاوية اليأس وقطع بهم أسباب الرجاء . نظروا الى أوربا في نهايتها والى أهل بلادهم في بدايتهم (على انهم لم يبدأوا بعمل وهذه البداية مفروضة) فقالوا لا يبلغ الظالع شأو الضليع ولا يمكن أن يسابق الفسكل (الذي يجيء في الحلبة آخر الخيل)

المجلي (اول خيل الحلبة في السباق) ثم نكصوا على أعقابهم بل نكسوا على رءوسهم مسجلين على أمتهم الهبوط وعدم الرجاء بالنهوض الى أبد الآبدين ، اما المتفكرون الاقلون عدداً ، والاكثرون هدى ورشداً ، الذين لم يسمح لهم يقينهم باليأس من روح الله والقنوط من رحمته فقد ردوا على اولئك قائلين

من طلب الغاية في المبدأ لا يؤب الا بالقنوط والشقا
ومن يسر سيراً طبيعيا لها يبلغ بالتوفيق منها المنتهى

فيجب ان نطلب الامر في ابانه ، ونأخذه بربانه ، من أوله ، ولا نحتاج في هذا ان نساهم الاوربي في اكتشافه واختراعه من أول الامر بل نحن أحوج الى مساهمته في ماهو أفيد من هذا وأسهل من ضروب التربية والتعليم وهو التعليم الذي لا يتوقف على الآلات والادوات ولا يحتاج فيه الى الاساتذة والمعلمين من المكتشفين والمخترعين ، والتربية التي نستغني فيها عن الاظآر والمربيات الاوربيات . نحن أحوج الى التربية والتعليم اللذين يشعران قلوبنا معنى الامة والوطن والجنس اذ لسنا الان الا افراداً متبددين متفرقين متنافرين متخاذلين متدابرين متنازعين متباغضين لا جامعة تجمعنا ، ولا رابطة تضمنا وتربطنا ، لا يحن قريب لقريب ، ولا يرعى حبيب ود حبيب ، ولا يرقب أحد في آخر الاولاذمة ، وانتهى بنا الامر الى ان وضع لنا بعض المحققين في علم الاجتماع البشري هذه القاعدة وهي ان العداوة والبغضاء فينا مرتبة على نسبة القرب فهي على أشدها الاقرب فالقريب فالبعيد فالابعد . لا جرم ان هذا يكاد يكون خروجاً عن البشرية وهبوطاً الى أخس أنواع

الحيوان الاعجم كالسمك الذي يأكل بعضه بعضاً فهل نحن مع هذه الحالة أمة ولا يكون مجموع الافراد أمة الا اذا كان كل فرد منهم يشعر في نفسه بان منزلته من سائر الافراد منزلة يده أو عينه مثلاً من سائر بدنه ولسنا كذلك كما نعلم ويعلم الناس أجمعون . هل لنا وطن نعمل لترقيته واعلاء شأنه ونحتاج للفنون والصنائع لكي نستعين بها على ذلك؟ أنى والعمل للوطن من خواص الامم المجتمعة لا الاحاد المتفرقة ؟ هل لنا لغة نحافظ عليها فنجتهد في نقل العلوم اليها ؟ كيف والمتفرغون للغتنا الشريفة يستغرقون العمر في البحث عن عوارض الالفاظ التي وضعها النحاة والصرفيون فيتعلمون اللغو لا اللغة ومن يقضي بضع عشرة سنة ليعلم ان «زوايا» ماصارت زوايا الا بعد خمسة أعمال هل يتفرغ لمعرفة زوايا الاعمال الحقيقية وهي ثلاث لا خمس؟ وهل ترك لغتنا وتعلم الفنون باللغات الاجنبية فيه حياة لنا وسعادة لامتنا اذا أردنا ان نكون أمة كسائر الامم المتمدنة ؟ هل لنا جنسية نسبية او لغوية تقرّب البعيد وتجمع الشتيت ؟ كيف ونحن امشاج واخلاط من اجناس وشعوب شتى ؟ هل لنا دين نأتمر بأوامره وننتهي عن مناهيه ونتأدب بآدابه التي تؤلف بين القلوب مهما كانت فاسدة كما الفت بين قلوب المهج من جاهلية العرب فجعلتهم اخواناً على سرر متقابلين يفتخر التاريخ بفضائلهم ومناقبهم وبعد ما كانوا عارا على النوع الانساني كادوا يرتقون عنه الى مصاف العالين من ملائكة رب العالمين؟ كيف ونحن في الدرك الاسفل من فساد الاخلاق كما اومأنا الى ذلك آنفا وذكرنا قاعدة عالم الاخلاق والاجتماع فينا . واما اعمالنا فهي على نسبة اخلاقنا طبعا فشا فينا السكر والبغاء والميسر (القمار) والظلم والتعدي والبغي الخ الخ الخ

وحيث قد تبين اننا فاقدون لكل الجوامع التي تتكون بها الامم وتقوم بها الممالك والدول فنحن احوج الآن الى التربيـة والتعليم اللذين يوجدان لنا هذه الجوامع المفقودة حتى اذا ماعادت لنا نمـدها وتقويها بالفنون الرياضية والطبيعية التي فيها عظمتها وكمالها والافان تعلم تلك الفنون بصبغة غربية ولغة غربية تكون عوناً للغرباء من أهل تلك اللغة أو الصبغة على تمكنهم من البلاد والقبض على أزمة منافعها بل وعلى امتلاكها بالمرة. هؤلاء الحكام الشرقيون الذين يظلمون الناس ويبغون في الارض بغير الحق فيمهدون بذلك السبل لتداخل الغربيين في بلادهم باسم الاصلاح أليسوا من المتعلمين تلك الفنون والراطنين بتلك اللغات ؟ أليس منهم الخائنون لسلطانهم البائعون لاوطانهم بثمن بخس دراهم معدودات وكانوا فيها من الزاهدين كل هذا مشاهد معروف حتى عند العامـة فلا حاجة للتطويل فيه والاستشهاد عليه

فيجب على العلماء والكتاب الشرقيين أن يوجهوا عنايتهم الكبرى الى هذا الامر « تكوين الامن » ويجتهدوا فيه قولاً وعملا ويجب على مؤسسي المكاتب والمدارس الوطنية ومعلميها وأساتذتها أن يجعلوه نصب أعينهم واهم ما تدور عليه تعاليمهم بحيث يغرسون فى قلب كل تلميذ ان حياته كلها لامته وبلاده وان علمه وعمله لاشرف له فيهما الا اذا صرفهما لمنفعة الامة والبـلاد ويجب على جميع العقلاء من الشرقيين ان يساعدوا هؤلاء الذين يجاهدون في سبيل الامة والوطن ومن تقاعد عن موازرتهم ومناضدتهم فهو خائن لامته ودولته وعامل على خراب وطنه فما بالك بمن يحاربهم ويشاكسهم ويقاومهم ويصادمهم

كل خائن ملعون يلعنه الله والملائكة والناس اجمعون فنسأل الله تعالى ان يبقي اهل بلادنا من هذه اللعنات وان يوفقهم للعمل بما فيه خيرهم ولا خير فيه لغيرهم [1] وان لنا العودة الى هذا الموضوع ان شاء الله تعالى وهو الموفق

محاورة

في دعوى ضرر الدين والجامعة الاسلامية

ضمنا مجلس مع مكاتبي اشهر الجرائد في الديار المصرية فذكر بعضهم « المنار » واثنوا عليه بما فضلوه به على جميع الجرائد العربية فقال احدهم اني ما رأيت المنار الا قليلاً ولقد تراءي لي منه انه يدعو الى الجامعة الاسلامية كما هو لسان علماء الاسلام الذين يتكلمون في السياسة ولا ريب في ان هذا الرأي خطأ لانه يدعو الى التفرقة بين المسلم والقبطي في مصر مثلاً ومصلحتهما واحدة والاتفاق بين المصري والهندي المسلمين ومصلحة بلادهما مختلفة وما آل ذلك الى خراب البلادين وما اضرّ بالشرق واوقع به الاستعمار الا الدين فينبغي للجرائد الشرقية الحرة التي تريد ان تخدم الشرق خدمة نافعة أن تبين للشرق الجديد فيه انه لا يمكن النجاح والترقي الا بنبذ الدين ظهرياً فقلت له انا لا انكر ان اختلاف الدين اضر بالشرق ضرراً بينا ولكن هذا الضرر لم يأت من طبيعة الدين وانما جاء من عدم فهم حقيقته ومن عوارض اخرى كجهالة الرؤساء ودسائس الطامعين الذين جعلوا الدين عاملا من عوامل السياسة واني اعتقد ان لا شيء يناسب بين

(١) هذه هفوة كهفوة ذلك الاعرابي الذي أسلم وقال امام النبي (ص) اللهم ارحمني وارحم محمدا ولا ترحم معنا أحدا . فقال له (ص) «ضيقت واسعا يا أخا العرب»